أوراق إستراتيجية

الأسلمة، التعددية، والمسألة الفلسطينية: حالة حزب الله

بقلم يعقوب هويغيليت (بروفسور زميل في دائرة الدراسات الثقافية واللغات الشرقية، جامعة أوسلو)؛ الصحيفة البريطانية للدراسات الشرق أوسطية؛ آب 2007.

خلاصة

إنّ المفردات السياسية للحزب الإسلامي السياسي وميليشيا حزب الله بما يتصل بالتعددية تُظهر تناقضاً ذاتياً هاماً. ففي لبنان، تكيف حزب الله مع عملية دمج وطنية بعد 15 عاماً من الحرب الأهلية، ويبدو الآن أكثر إيجابية بكثير تجاه التعددية عما كان عليه في العام 1985، عندما عرّف عن نفسه رسمياً. وعلى كل حال، يشكل نضال المقاومة الفلسطينية أهم جزء على الإطلاق من هوية الحزب السياسية والدينية، وفي هذا المجال، يعتمد الحزب على مفردات صراع ذات حافز ديني مطلق.

فحزب الله جعل المسألة الفلسطينية ضمن حقيقة دينية مطلقة في نفس الوقت الذي يربط فيه هذه المسألة بقضية الوحدة الوطنية في لبنان، متسائلاً عن المصداقية الوطنية لكل لبناني يختلف معه حول هذا الموضوع. وبالنتيجة، "تستعمر" مفردات ذات توجه حربي مفردات أكثر تسامحاً وتعددية لحزب الله داخل لبنان، ما يعرقل حصول تطور أكبر في مواقفه التعددية.

إنّ الإحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية هو، من دون شك، أحد المحاور الأساسية الذي تدور حوله السياسات الشرق أوسطية مؤثرة على التطور السياسي والإجتماعي في كل البلدان العربية.

ومع الأخذ بعين الإعتبار أهمية هذا الصراع في الخطاب الإسلامي في كل جزء من العالم، بإمكاننا الإفتراض، بشكل سليم، بأنّ لديه تأثيرات هامة على مواقف المنظمات الإسلامية وإيديولوجيتها. وبشكل أكثر تحديداً، فإننا قد نسأل: هل للصراع الإسرائيلي– الفلسطيني أي تأثير على مواقف حزب الله تجاه التعددية؟

قد يتوقع المرء أن يكون الجواب نعم، بما أنّ السجلات التاريخية الأخيرة لإسرائيل، فلسطين ولبنان كانت متشابكة على مدى الـ 30 سنة الأخيرة. وقد لعب حزب الله، ولا يزال، دوراً هاماً في عملية السلام بين الأفرقاء الثلاثة. ومع المشهد السياسي اللبناني المتعدد الأعراق والأديان، من المثير أن نرى كيفية تأثير المسألة الفلسطينية على إيديولوجية حزب الله في الساحتين الوطنية والإقليمية.

وعندما يتم تحليل الحركات الإسلامية كحركات فاعلة سياسية، فإنه يُحكم عليها بحسب أعمالها. وإلى الحد الذي يُؤخذ فيه خطابهم بالإعتبار، يثبت هذا الخطاب، على الأغلب، نفورهم من التعددية والقيم الديمقراطية. وفي حالة التفوه بعبارات تعتبر إيجابية تجاه قيم كهذه، فمن المرجح أن يتم صرف النظر عنها وإهمالها بصفتها قيماً خادعة ولا تستحق الإهتمام. وعلى عكس وجهة نظر كهذه، تنطلق هذه المقالة

من الفرضية المشتركة في علم اللغة بأنّ النصوص والتعابير الكلامية تشكل أفعالاً في المجال الإجتماعي. وكما يضع الأمر عالم اللغة الإجتماعي البريطاني نورمان فيركلو: "اللغة جزء من المجتمع؛ الظاهرة اللغوية هي ظاهرة إجتماعية من نوع خاص".

وفي هذه المقالة، سأحاول توضيح ماهية مواقف حزب الله تجاه التعددية، وكيف تؤثر المسألة الفلسطينية على هذه المواقف، وذلك بمناقشة بعض الكلمات الأساسية في خطاب الحزب. إنّ سؤال الأسلمة والتعددية سؤال مزعج، خاصة بما أنّ الأسلمة كانت بالأصل إيديولوجية شمولية الى حد ما، ولأن المنظمات الإسلامية لا تزال تميل للتحدث عن التعددية بغموض أو حتى بمصطلحات متناقضة ذاتياً (مثال الـــ **FIS** في الجزائر معروف تماماً). إنّ مواقف حزب الله كلها تجاه هذا السؤال هي الأهم، بما أنّ الحزب، في الواقع، يشارك رسمياً في السياسة اللبنانية وبإمكانه، الى حد معين، وضع إيديولوجيته قيد الممارسة.

إنّ السؤال متأثر بالعرض المعروف "بعلم اللغة الحاسم" أو "تحليل الخطاب الحاسم" (**CDA**). فتحليل الخطاب أصبح مصطلحاً زلقاً الى حد ما، وهناك فيض من النماذج وأطر العمل لتحليل الخطاب. ويركز البعض على الكيفية التي "تتواصل" بها نصوص مع نصوص أخرى، ويركز آخرون على بناء الهوية، بينما يركز آخرون، مرة أخرى، على نماذج خطابية في نماذج نصية مختلفة، وهكذا.

إنّ ميزات الـــ **CDA** (تحليل الخطاب الحاسم) هي: أولاً، أنها مُعدَة ومكيفة بإتجاه تحليل الإيديولوجية والسياسات المعبر عنها من خلال اللغة. وثانياً، إنها مرتبطة بشكل صريح بعلم الإجتماع (السوسيولوجيا)، على خلاف مقاربات أخرى للخطاب تطورت في دراسات أدبية أو سيكولوجية، على سبيل المثال.

إنّ الـــ **CDA** (تحليل الخطاب الحاسم) مبني على أساس الفكرة القائلة بأنّ اللغة لها دور هام في تشكيل الطريقة التي نفهم بها العالم من حولنا. إنه يسعى لتوضيح الفرضيات الإيديولوجية المحددة لأي خطاب، فرضيات أصبحت "شعوراً مشتركاً" في مجتمع، ولذلك فهي غير خاضعة للنقاش بشكل طبيعي. إنّ أسلوبه (**CDA**) هو القيام بتحليل الكيفية التي تتصل بها هيكليات النص، علم النحو، والمفردات بالوضع الإجتماعي، السياسي والإقتصادي الذي يحيط بإنتاج وإستهلاك النصوص في المجتمع.

ومن نافل القول أنّ هذا النوع من الأساليب يشتمل على مقدار كبير من التأويل والتفسير من جانب المحلل، مع كل مصادر الخطر والأفخاخ مثل مستلزمات طريقة الأداء والعمل. ومع ذلك، فإنّ التشديد على أنّ الـــ **CDA** ينتج الإتصال الوثيق بين اللغة وأنواع أخرى من العمل الإجتماعي ينقذه من الإنزلاق الى مجال التكهن الخالص. وهناك، وهذا مدعاة للسرور، كم كبير تماماً من الأبحاث الممتازة حول التاريخ والسياسات اللبنانية وعن دور حزب الله في هذا الأمر، بحيث أنّ محللاً ما لمفردات الحزب السياسية بإمكانه أن يكون محاطاً، بشكل صحيح بسياق الكلام.

إنّ مفهوم " مخطط الرسم البياني أو "جداول التصنيف" مفهوم مفيد تحديداً عند محاولة إجراء مسح لمفردات حزب الله حول التعددية. ويدّعي فيركلو بأنّ الناس ينظمون مفرداتهم بحسب إيديولوجية ما، وبأنّ "جدول التصنيف" يشكل طريقة محددة لتقسيم بعض جوانب واقع مبني على تمثيل إيديولوجي محدد لذلك الواقع". ووفقاً لذلك، فإننا نسأل: ما هي الإيديولوجية التي توجه خطاب حزب الله بخصوص عالم السياسة الخارجية وصلة الحزب بهذا العالم، إنطلاقاً من مفرداته؟ هل هذا التمثيل متجانس؟ ما الذي يقوله لنا حول الثقافة السياسية للحزب؟ ويعالج التحليل، بشكل رئيس، الفترة الزمنية ما بعد الإنسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في ربيع عام **2000** وصولاً الى خريف **2002**. خلال هذه الفترة، يظهر مجالان قابلان للتمييز فوراً في تصريحات حزب الله وخطاباته المكتوبة: السياسات المحلية داخل لبنان من جهة، وفلسطين من جهة أخرى. وسأنظم مقالتي حول هاتين المسألتين. ونحن بحاجة، على كل حال، الى التأسيس أولاً لكيفية تغير الجو السياسي في لبنان بعد الحرب الأهلية.

لقد حدثت نقطة التحول الرئيسة في مسار حزب الله عندما إختار الحزب، بعد وقت قصير من إنتهاء الحرب في العام **1991**، أن يصبح جزءاً من النظام السياسي الذي كان قد وصفه بـــ "المتعفن والفاسد" عندما أصدر "رسالته المفتوحة الشهيرة الى المظلومين" في العام **1985**

(والتي سنعود إليها من الآن فصاعداً بعنوان "الرسالة"). وبدأ الحزب بمواصلة سياسات براغماتية وإستهل حوارات مع مجموعات دينية وسياسية أخرى في لبنان. أكثر من ذلك، أعلن حزب الله بأنّ فكرة دولة إسلامية في لبنان هي فكرة مثالية لا يجب فرضها في لبنان طالما أنّ البلد متنوع للغاية. وبدلاً من ذلك، إحتفل قادة الحزب، بالواقع، بهذا التنوع الديني في عدد من المقالات والخطابات. ومع ذلك، فإنّ حقيقة السماح لحزب الله بالإحتفاظ بميليشياه، بهدف ظاهري هو إخراج الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان، قد ولّد الإستياء، خاصة بين أوساط الموارنة. فعندما إنسحب الجيش الإسرائيلي، بتردد، في العام 2000 من الأرض اللبنانية التي كانت قد إحتلتها منذ العام 1982، فاز حزب الله بنصر معنوي وسياسي في الساحتين الإقليمية والوطنية. وبشكل يتعذر تفسيره ربما، فقد خلق هذا الإنتصار مأزقاً محيراً وجدياً بالنسبة للحزب، بما أنه نظم وكيّف جهازه وخطابه للتركيز على الصراع مع إسرائيل منذ الثمانينات. ومع نهاية الإحتلال، واجه الحزب إمكانية تهميشه، حيث انّ السبب الرئيسي قد إختفى. كما أصبح، من الصعب أكثر أيضاً على قيادة الحزب تبرير عدم وجوب نزع سلاح الميليشيا.

وفيما سيأتي لاحقاً، سأظهر بأنّ حزب الله حاول حل هذا المأزق المحير بتشديده أكثر على "المسألة الفلسطينية" وبشكل أقل على السياسات اللبنانية الداخلية. وقد أدت هذه الحقيقة الى خلق إلتباس إيديولوجي هام في مواقف حزب الله بشأن التعددية في لبنان، بما أنّ الحزب يصر على الربط بين السياسات الخارجية والداخلية. أما الإلتباس، فيتم إبرازه وكشفه من خلال تحليل خاص بمقارنة المفردات ذات الصلة بلبنان وتلك ذات الصلة بالفلسطينيين، التي سأتحول إليها الآن.

لبنان: تطلع تعددي متطور

كان إندماج حزب الله المتدرج في السياسات اللبنانية مترافقاً مع إعتماده المتزايد على مفاهيم مثل الوحدة الوطنية، الحوار والتعايش. وبهذا الخصوص،فمن المفيد التنور بإلقاء نظرة على مقالة ظهرت في جزئين في صحيفة السفير اللبنانية في 12 و 13 تشرين الثاني 2001. كانت المقالة بقلم حسن عز الدين، وهو عضو في المكتب السياسي لحزب الله.

"يكتب عز الدين بأنّ حزب الله يعتبر الديمقراطية الدستورية بمثابة النظام السياسي الأفضل للبنان. ثانياً، يشدد عز الدين على أنّ الحرية "بمفهومها الإسلامي" هي قيمة أساسية وجوهرية بالنسبة للحزب. ويؤمن حزب الله "بحرية المعتقد، التعبير وممارسة الشعائر الدينية، حرية النشاط السياسي والوحدة التجارية وحرية الصحافة إلتزاماً بالهوية والمعايير العامة". كما يؤمن الحزب بحق المعارضة. ثالثاً، إنّ إيمان الحزب بأنّ الله خلق الإنسان بصفته خليفته على الأرض يجعله "يدعم الحوار بين الأديان والتعددية الدينية والتعايش" على أساس "التوازن الإنساني" بدلاً من "توازن القوى". وتعزز تصريحات لقادة آخرين الإنطباع عن إنفتاح أكبر للحزب. إذ يصرح حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، بالقول: "هذا البلد بحاجة لكل أحزابه السياسيين وطوائفه الدينيين (...) نحن بحاجة للتعاون". أكثر من ذلك، لقد أيد برنامج الحزب الإنتخابي لإنتخابات العام 2000 البرلمانية التمثيل الحصصي بدلاً من التمثيل الطائفي، تعزيز مؤسسات المجتمع المدني وتعزيز دور المرأة في الحياة العامة.

وعندما أصدر الحزب "رسالته" الشهيرة في العام 1985، كان تستحوذ على حزب الله وجهة نظر فلسفية ثنوية (الفلسفة التي تقسم العالم الى خير وشر أو تعتبر المادة شراً والعقل خيراً)، حيث المتعاطفون مع إيديولوجيته هم الى جانب الله، وكل الباقين يتوجب محاربتهم. ووفقاً لذلك، كان هناك تشديد قوي على تصنيفات "نحن" و "هم" في"الرسالة". فما الذي حصل ليحدث هذا التمايز بعد العام 1991؟

لا يزال خطاب حزب الله يدور حول محور الضم/ الإقصاء، إلا أنّ ثوابته قد تغيرت. ففي لبنان، ليس من شك بأنّ الحزب يرغب حالياً بالتواصل مع كل أولئك اللبنانيين الذين يعترفون بالحكومة على أنها حكومة شرعية. وفي المقدمة المتعلقة بالبرنامج الإنتخابي، يخاطب حزب

الله القراء بهذه الطريقة: "أيها الشعب اللبناني الوفي"، ويمضي الحزب بحديثه عن الحقوق والقضايا "لشعبنا وبلدنا" والأخطار التي تهدد "أمتنا"، ويشدد على أنه يريد الحفاظ على حياة وطنية موحدة "تضم جميع أولاد العائلات الروحية في لبنان". فكلمات "المسلم" و "الإسلام" غير بارزة في البرنامج، وذلك بتناقض حاد مع تشديد "الرسالة" على التصنيفات الدينية.

وترافقاً مع هذا الإنفتاح المتزايد، فإن تطور مفاهيم حزب الله السلبية بخصوص الطائفة والطائفية أمر جدير بالملاحظة. فالطائفية كلمة مستخدمة من قِبَل اللبنانيين لوصف نظامهم السياسي الذي تأسس في العام 1943 بعدما غُرز الميثاق الوطني الرسمي بين المجتمعات الدينية والإجتماعية القيادية الثلاث: الموارنة، السنة والشيعة. وبحسب هذا النظام، يُخصص كل مجتمع ديني أو "طائفة" بعدد معين من المقاعد في البرلمان، كما أن المواقع القيادية في البلاد مقسمة بين ممثلي الجماعات الدينية الثلاث الأكبر. وكان هذا النظام أحد أسباب ضعف الدولة اللبنانية قبل الحرب الأهلية في العام 1975، بما أنّ الفشل بالوصول الى إجماع عام بين قادة كل طائفة من الطوائف حول القضايا الكبرى يؤدي الى تعليق العمليات السياسية وشل مؤسسات الدولة. وقد حدث هذا عدة مرات قبل العام 1975. لذلك تعهد إتفاق الطائف عام 1989، الذي أدى الى نهاية الحرب الأهلية، بإلغاء الطائفية، وهو شيء لم يحدث بعد.

إنّ كلمتَيْ "الطائفة" و "الطائفية" موجودتان في كل الأوقات في خطاب حزب الله حول المسائل اللبنانية، ولهما مفاهيم ومعانٍ سلبية تماماً لدى الحزب. أما حسن نصر الله، فيأسف لواقع السياسيين اللبنانيين، حيث يبدو العالم، بالنسبة لهم، بأنه يبدأ وينتهي عند الحدود الطائفية:

"في لبنان، نحن نفتقر للشعور بالمسؤولية الوطنية، ونحن لا نلتفت الى الحقيقة بأنّ عملية الشفاء متصلة بالأداء السياسي العام. ولسوء الحظ، إنّ العالم يبدأ وينتهي عند حدود المناطق، الطوائف والزعامات".

ويريد نعيم قاسم، نائب الأمين العام، من الناس أن يفكروا بحزب الله بالمصطلحات الوطنية بدلاً من المصطلحات الطائفية: *"لا تقولوا بأنّ حزب الله هو لطائفة واحدة معينة– إعتبروه كما هو، من دون أية خلفية طائفية أو فئوية، عندها سترون بأنّ لديه أجندة وطنية صحيحة. نحن مستعدون لمد أيدينا لبناء لبنان الذي أردناه معاً وحررناه معاً، سواعدنا متشابكة، بعيدة عن أية إشارات طائفية؛ فقوة لبنان هي في تجنب الفئوية والطائفية".*

أما توفيق شومان، وهو كاتب إفتتاحيات منتظم في صحيفة "الإنتقاد" الأسبوعية للحزب، فحانق جداً بسبب الإفتقار للإرادة السياسية بالتخلص من الواقع المظلم للطائفية والإنتقال الى نور بناء الدولة الحقيقية. وهنا تعليق على الجدل الدائر حول تخفيض سن الإقتراع من 21 الى 19 عاماً، وهو تغيير يعترض عليه كثيرون بتبرير عدد الشباب الشيعة المرتفع في لبنان:

(...) بعض اللبنانيين يعتقدون بأنّ تخفيض سن الإنتخاب يتضمن وضع الأسس لتغييرات أعمق. ولكي يريحوا بالهم، فإنهم يغلقون الباب أمام التغيير ويرمون المفتاح في أعماق ثقافة التوجس والطائفية، حيث يسود الظلام. كيف بإمكاننا بناء البلد؟–لا أحد يعلم.

ويبدو أنّ بديل حزب الله للطائفية هو الوحدة الوطنية. فعلى سبيل المثال، وفي خطاب له لمؤتمر البلديات في 16 تموز 2002، قال نصر الله: *"في عملنا، ما يجب أن يحكمنا هو مصلحة شعبنا، بلدنا وأهلنا. أما بالنسبة لمن نختلف معهم، فإن علينا أن نحاول إستيعاب هذا الصراع معهم...(...) واليوم، عندما نواجه أزمة إقتصادية وإجتماعية، هل بإمكان أي شخص أو فئة أو مجموعة أن تُخرج،بنفسها، البلد من هذا الوضع الحرج بشدة؟ على الإطلاق،–هذا غير ممكن. إنّ القضية، كما قلنا، تتطلب مشاركة وتكاتف الجميع".*

إنّ عملية تحديد هوية كل اللبنانيين عبر الطوائف أمر بارز هنا. إذ لم يعد هناك أي حديث عن المسلمين أو الشيعة ضد مجتمعات أخرى، كما كان الحال في "الرسالة". فالتركيز، بدلاً من ذلك، هو على بناء لبنان موحد خالٍ من الإنقسامات الطائفية. فما هو الجدول التصنيفي الإستطرادي(المعالج لمواضيع شتى) الذي يستخدمه حزب الله عندما يتصل الأمر بالسياسات اللبنانية، إنطلاقاً من هذه الإستنتاجات ؟

بالمقارنة مع "الرسالة"، فإنّ مسألة الإعتماد على الحقيقة الدينية المطلقة، المهمة للغاية لحشد الناس حول قضية ما في زمن الأزمة، قد وُضعت جانباً بشكل واضح إفساحاً بالمجال أمام رؤية سياسية أكثر براغماتية لكلا العمليتين وللفاعلين الآخرين في المشهد السياسي. وبدلاً من نظرة عالمية تقف فيها المجتمعات الدينية والعرقية ضد بعضها البعض، تبنى حزب الله رؤية للبنان كبلد متنوع واحد موحد بجهاز دولة حديث وعلماني.

ويبدو بأنّ حزب الله يرتب رؤيته للسياسات اللبنانية وفقاً لبراغماتية سياسية وقومية شاملة. وبذلك، فإنّ الدليل المنطقي (المعالج لمواضيع شتى) يدعم مفهوم التحول الى البراغماتية التدرجية في سياسات حزب الله، بحسب عبارة لحمزة. وعلى كل حال، أجد من الصعب تقبل عرضه الذي يقول فيه بأنّ هذا التحول ما هو إلا جانب واحد فقط من إستراتيجية ذات حدين للإعتراف، بشكل أكثر أو أقل، بنظام إسلامي شمولي مبني على أساس الشريعة (الإستراتيجية الأخرى هي الإستراتيجية القتالية)، والإدعاء المصاحب له بأنّ إختيار الإستراتيجية عرضة "للتذبذب" بحسب الظروف. أولاً، ليس هناك من شك بأنّ الحزب يرغب بتأسيس نظام إسلامي، أما كيف يمكن لنظام كهذا أن يبدو، فإنّ ذلك أمر غامض تماماً.فقد أظهرت التجربة الإيرانية بأنّ مفهوم الشريعة "يمكن إستخدامه لتبرير كل أنواع السياسات"، وبأنه في جو سياسي يتنامى ديمقراطية أكثر فأكثر عاماً بعد عام ، ليس هناك حاجة لقمع نظام إسلامي". ثانياً، لا خطاب حزب الله ولا نشاطاته على الأرض يعللان نظرية "التذبذب" بين الإستراتيجية القتالية والبراغماتية التدرجية بما يتعلق بالسياسات اللبنانية.

إني أود بالأحرى أن أنوه بتغير مفاجئ لماضٍ مسلح وتحول نحو سياسات داخلية سلمية، والتي أصبحت سياسات مندمجة ومحكمة أكثر فأكثر منذ العام **1991**. إذ يبدو من غير المنطقي الإنكار بأنّ ثقافة حزب الله السياسية قد تأثرت بالمشاركة في الإنتخابات، الحوار عبر الطوائف، وعمليات سياسية سلمية أخرى لصالح الفكرة بأنّ الحزب ينتظر فقط المناسبة الملائمة لفرض نظامه القمعي، سواء بقوة السلاح أو الوقائع الديمغرافية. وعلى كل حال، هذا لا يعني القول بأنّ رؤية حزب الله الإيجابية عن الوحدة الوطنية خالية من الغموض والإلتباس. فعلى سبيل المثال، إنّ تعبير "الوحدة الوطنية" نفسه موجود في القسم الأول من البرنامج الإنتخابي، حيث هو مرتبط بالمقاومة وبمفهوم "الإتفاق الوطني التام". وعندما ألقى حسن نصر الله خطابه، أيضاً، في يوم القدس العام **2001** (الذي عينه آية الله الخميني)، كانت إحدى تصريحاته هي التالية: "*نحن ندعو كل اللبنانيين في يوم القدس لزيادة درجة الوحدة الوطنية، وندعو الفلسطينيين للإلتصاق بوحدتهم الوطنية برغم كل جراحهم وآلامهم*".

هنا تبدو كلمة "الوحدة" على مستويَيْن مختلفين: الوحدة الوطنية والوحدة الفلسطينية. وكل مستوى من المستويَيْن له قواه المضادة التي تعمل لإضعاف الوحدة. وبناءً على ذلك، وفي لبنان، غالباً ما يكرر حزب الله شكوكه ضد المعارضة المسيحية، المارونية بشكل أساسي. ويصرح حسين رحال في صحيفة الإنتقاد بأنّ ثقافة اليميني المسيحي لم تتوقف عن كونها ثقافة عدواة تجاه العروبة، حتى بعد التأكيد على إتفاقية الميثاق الوطني، الذي سوى قضية هوية لبنان وإنتماؤه... إنه تيار يحتفظ بإنتاج "ثقافة التعامل" و "التآلف" الشخصي والسياسي مع العدو.

أما في المشهد الفلسطيني، فإنّ أعداء الوحدة هم أولئك الذين يبذرون الشك حول شرعية الهجمات "الإستشهادية"، أو بمعنى آخر، أولئك الذين لا يدعمون من كل قبلهم ثورة متصلبة لا هوادة فيها ضد الإحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية. ويتم التطرق دوماً الى قضية الوحدة في سياق المقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية واللبنانية.

إنّ هذه نقطة هامة تضيء على التأثير الفلسطيني في السياسة الداخلية اللبنانية. فمنذ مجيء منظمة التحرير الفلسطينية الى لبنان في أوائل السبعينات، كان الوجود الفلسطيني ومخيمات اللاجئين عبارة عن أسئلة مزعجة في لبنان. فالكل يتعاطف بالتأكيد مع وضعهم، لكنهم يرغبون لو لم يكن الفلسطينيون هناك. وقد إعتبرهم المسيحيون، خلال الحرب الأهلية، تهديداً خطيراً للغاية لوحدة لبنان الوطنية، بحيث قامت ميليشيا حزب الكتائب المارونية بمهاجمتهم. كما إصطدمت حركة أمل الشيعية، في النهاية أيضاً، مع الميليشيات الفلسطينية خلال

"حرب المخيمات" من العام 1984 الى 1986. وحتى في تجمعات حزب الله الشعبية، يُعتبر الفلسطينيون غائبين بشكل واضح وملحوظ، رغم أنّ قسماً كبيراً من الخطاب مكرس لدعم قضيتهم. فاللبنانيون ليسوا مستعدين لإعطاء اللاجئين الفلسطينيين المواطنة والحقوق المدنية، وهم لا يريدون، تحديداً، رؤية تكرار للأحداث في السبعينات، عندما تسببت المقاومة الفلسطينية بقيام إسرائيل بغزو لبنان. لذلك، فإنّ دعم حزب الله لهم ليس بالأمر غير المثير للجدل، خاصة وأنّ الحزب قد أخذ على عاتقه المتابعة من حيث توقفت منظمة التحرير الفلسطينية، كما كان يفعل، أي بالإنخراط في دورة المناوشات المستمرة مع الجيش الإسرائيلي على الحدود. لذا، دعونا ندرس خطاب حزب الله المتعلق بالنزاع الفلسطيني– الإسرائيلي.

النضال الفلسطيني: لا مجال للحوار

تستخدم قيادة حزب الله كل مناسبة تقريباً للحديث عن القضية الفلسطينية بجعلها، معظم الأحيان، الموضوع الأساسي للمناسبة. ففي 24 أيار 2002، في الذكرى الثانية لإنسحاب إسرائيل من الجنوب اللبناني، إستخدم نصر الله خطابه للجماهير في ضاحية بيروت الجنوبية لدعم الإنتفاضة وتبرير الهجمات الإنتحارية بشكل أساسي. وبعد التصريح بأنه "يود التحدث عن فلسطين أكثر من حديثه عن لبنان" (حصل هذا في الإحتفال السنوي بالإنتصار اللبناني)، شدد على القول بأنه ليس هناك من طريق آخر أمام الفلسطينيين غير المقاومة، وبأنّ العمليات الإنتحارية شرعية وبأنها وسيلة المقاومة الوحيدة الفعالة في ظل الظروف الحالية. وقبل أيام قليلة فقط، كان لنائب الأمين العام، نعيم قاسم، الرسالة نفسها للجماهير في لقاء مفتوح نظمته مؤسستان ذات صلة بحزب الله. فبحسب رؤيته، لا تخدم المبادرات الديبلوماسية الدولية سوى تعزيز موقع إسرائيل الإستراتيجي، وبأنّ لا حل آخر غير الثورة والمقاومة.

أما الطريقة الأخرى لقياس أهمية فلسطين بالنسبة لحزب الله، فهي إلقاء نظرة على إفتتاحيات صحيفة الإنتقاد التابعة لحزب الله. فمن أصل 42 إفتتاحية مكتوبة ما بين 17 آب 2001 وحتى 27 حزيران 2002، ثمانية فقط كانت مهتمة بالقضايا اللبنانية حصراً. لقد كان هناك إفتتاحيتان عن الخميني وواحدة عن الحاجة الى الوحدة بين الدول العربية. أما الإفتتاحيات الأولى، فقد عالجت، وأنا أتحدث على نطاق واسع، واحدة من القضايا التالية: الإحتلال الإسرائيلي والسياسة في الأراضي الفلسطينية، المقاومة الفلسطينية، المعايير المزدوجة للسياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط، التعاون بين إسرائيل والولايات المتّحدة، والسياسة الأميركية الخارجية عموماً. لم يكن هناك إفتتاحيات عن محاربة حزب الله للجيش الإسرائيلي حول مزارع شبعا المتنازع عليها.

وكان المرء ليتوقع بأن إهتمام حزب الله، بعدما حرر الجنوب من الإحتلال الإسرائيلي، سيتحول نحو القضايا اللبنانية، بما أنّ البلاد ترزح تحت مشاكل إقتصادية وديمغرافية خطيرة تؤثر على الشيعة الى حد عظيم. على كل حال، وبرغم أنّ 8 إفتتاحيات تنكب بالفعل على بعض هذه المشاكل، فإنّ الإنطباع الكلي هو أنّ هناك قضية واحدة ذات أهمية طاغية، هي، تحديداً، تلك المتعلقة بفلسطين عموماً والقدس خصوصاً. إذن، كيف يقدم المحرر حسين رحّال هذه المسألة؟

يعرض رحّال مواقف مشابهة جداً لتلك المعبر عنها في "رسالة 1985" بقدر ما الولايات المتّحدة مهتمتين. وفي مصطلحات متأثرة بالخطاب السياسي الدولي بعد 11 أيلول، يدين رحّال الولايات المتّحدة على "إرهابها الذي لا حدود له". فرحال غير متأثر بالمرة بمحاولات الحوار والمفاوضات بين الفريقين في الصراع الفلسطيني. فمبادرات كهذه يتم تصويرها على أنها إما إستراتيجيات إسرائيلية لكسب الوقت، أو محاولات لفرض حل ظالم على الفلسطينيين. فهو يكرر في مقالة بعد أخرى بأن المقاومة هي الطريقة الوحيدة التي أثبتت نجاحها ضد الإسرائيليين. وبجمع محتويات هذه المقالات، يمكن للمرء القول بأن مسؤولو حزب الله يهدفون الى تمجيد المقاومة الفلسطينية وتصويرها كإمتداد للمقاومة في جنوب لبنان.

أما السمة الحادة، ليس فقط بما يخص الإفتتاحيات وإنما بما يتعلق بكامل غلاف الصحيفة حول القضايا ذات الصلة بفلسطين، فهي الإفتقار الكامل للشفقة والرحمة تجاه المدنيين الإسرائيليين الذين ماتوا خلال الصراع. فموت هؤلاء الضحايا لا يُذكر إلا كنوع من أنواع "الإنفجار" بين إنفجارات عديدة ضد "الصهاينة". إنّ رحّال مستعد لتوسيع علمه اللغوي وتصوره السياسي لإنكار أن يكون للإسرائيليين الحق حتى في أن يدعوا أنفسهم "شعباً". *"أليس الشعب، أي شعب، هو أحد العوامل الثلاث التي تصنع دولة: الشعب، الأرض، والسلطات (السيادة)؟ إذا إعترفنا بالشعب الإسرائيلي، عندها يعني ذلك الإعتراف، بشكل آلي، بأنها جزء من كيان "دولة"، وهذا الشعب وهذا الكيان هما من جلبا لنا شارون (...) ففي كل ساعة، يولد عدد من "الشارونيين" في الكيان الإسرائيلي، فما الذي سنفعله غداً، إذا ما حصل أحدهم على السلطة في الكيان الصهيوني؟*

هذا الأمر يظهر لنا بأنه ليس هناك من شك حتماً بالصلة بإسرائيل سواء ككيان سياسي أو كشعب بالمعنى الثقافي للكلمة. بالإضافة الى ذلك، تظهر تهديدات سياسية محتملة ضد العرب والمسلمين. وبالإجمال، هناك ميل للتقليل من إنسانية الإسرائيليين وتصوير الهجمات ضد المدنيين كمهمات بطولية يقوم بها الشهداء. وبذلك، فإنّ عدداً من الصفحات الأولى تحمل غلافاً كاملاً، على سبيل المثال، عن مشاهد حول موقع التفجير الإنتحاري الأخير مترافقاً مع عناوين مثل: "عملية مجدو: إحباط الخيار الإسرائيلي". وتدعم تصريحات مسؤولو حزب الله هذا الإنطباع. وفي حديث له بمناسبة يوم القدس في العام **2001**، صرح الأمين العام حسن نصر الله بالتالي: *"ليس هناك مدنيون في إسرائيل، ويجب أن تستمر الهجمات الإستشهادية من دون أي تردد"*.

المقاومة

بما يتعلق بمفردات حزب الله حول هذا الموضوع، فإنّ المقاومة هي الكلمة الأهم في خطاب الحزب حول فلسطين. بالواقع، إنّ هذه المسألة وهذه الكلمة تظهران، تقريباً، في كل مقابلة، تصريح، أو خطاب يدلي به مسؤولو حزب الله. ففي البرنامج الإنتخابي للعام **2000** ، المقاومة هي الجزء الأول والأهم، ويقرنها حزب الله بمفاهيم الوحدة الوطنية والعربية. أكثر من ذلك، يُدرج حسن عز الدين المقاومة، في المقالة المذكورة آنفاً، على أنها النقطة الأولى الأساسية عندما يشرح لقراء صحيفة السفير كيف يرى حزب الله نفسه. وفي حين أنّ حزب الله لا يزال يحافظ على القول بأنّ هناك مقاومة لبنانية مرتبطة بقضية مزارع شبعا والإنتهاكات الإسرائيلية للمجال الجوي اللبناني، فإنّ الكلمة أصبحت مرتبطة، أكثر فأكثر، بالمقاومة الفلسطينية ضد الإحتلال الإسرائيلي.

ليس هناك من شك حول هوية المقاومة: إنها إسلامية. وسواء أصطُلح على تسميتها بالمقاومة الإسلامية، كما يحدث تكراراً، أو أن كلمة "المقاومة" مقترنة بالمفهوم الإسلامي عن الشهادة، فإنّ الفكرة بأنّ المقاومة جزء من الإسلام هو أمر واضح وجلي. إنّ المشاكل المحتملة بما يتعلق بالتعددية التي تظهر عندما يتم تصوير النزاع بمصطلحات دينية تعتبر واضحة. فعلى سبيل المثال، عندما يُسأل عن الموضوع، يعلق نبيل قاووق، المسؤول الرئيس لحزب الله في الجنوب، بالقول: *"إنّ حق المقاومة بإنجاز العمليات ودعم الثورة الفلسطينية ليس خاضعاً للتفاوض أو التنازل"*.

إنّ "المقاومة" ككلمة محاطة بمؤسسات ذات أهداف وأسماء تكشف، بوضوح، عن مركزية هذا المفهوم في عالم حزب الله الإيديولوجي. فعلى سبيل المثال، إنّ الكتلة البرلمانية لحزب الله تدعى "كتلة الوفاء للمقاومة". أما مؤسسة جهاد البناء الهامة، التي إستخدم حمزة أسلوب الإستعارة بشكل مناسب لوصفها بـ "وسيلة إعادة الإعمار المقدسة" (لاحظ مرة أخرى الصلة بالحقل الديني)، فهي من بين أشياء أخرى مكرسة لإصلاح وإعادة إعمار منازل الشيعة الجنوبيين الذين تأثروا بصراع المقاومة العسكري مع الجيش الإسرائيلي. وبالإجمال، يمكن القول بأنّ المقاومة الإسلامية تشكل محوراً مركزياً يدور حولها خطاب وأنشطة حزب الله الأخرى.

بالإضافة الى كونها محاطة بخطاب محدد دينياً، فإنّ المقاومة متصلة بشكل وثيق بشبكة قضايا ومفردات قومية، فمتى ما ذُكرت المقاومة، فإنّ كلمات مثل "أرضنا"، "الشرف"، "الكرامة" و "الشعب" تظهر الى جانبها. خذ على سبيل المثال التصريح التالي لحسن نصر الله:

"إنّ الإنتفاضة هي خط الدفاع الرئيسي للأمة وشعوبها، للحكومات، وللكرامة والمجد، ومن يدعم هذه الإنتفاضة لا يكون يمنح الفلسطينيين فضلاً، لأنه يدافع عن نفسه، وعائلته وكرامته الشخصية".

هذه الشبكة من المفاهيم القومية متصلة، بدورها، بفكرة الوحدة الوطنية عبر الحدود الطائفية، كما هو الحال عندما يصرح الحزب في برنامجه الإنتخابي للعام 2000 بأنّ المقاومة أظهرت بأنها الخيار الوحيد "لحماية أمن وكرامة شعوبنا، تحرير الأرض وتحقيق وحدة وطنية حقيقية". إنّ الصلة بين القومية والراديكالية الدينية يتم تعزيزها بواسطة إنخراط حزب الله الناشط والفعال في سلسلة مؤتمرات "قومية– إسلامية"، تهدف الى خلق حوار بين القوميين والإسلاميين.

وبالرغم من مقدمات كهذه، تعتبر مقاومة حزب الله الإسلامية مشروعاً منفرداً تماماً، بصرف النظر عن الدرجة التي يحاول فيها الحزب دمج الوطنيين أو الدولة اللبنانية في هذه المقاومة (على سبيل المثال، رفع العلم اللبناني مع علم حزب الله في المناسبات الإحتفالية، وعزف النشيد الوطني الى جانب نشيد حزب الله). إنّ الأصوات القوية في الجدل السياسي اللبناني هي أصوات ناقدة للمقاومة وللدعم الفعال للثورة الفلسطينية (على سبيل المثال أصوات محرري صحيفة النهار الرفيعة) بالإضافة الى الزعم بأنها (أي المقاومة) تقوض سلطة الدولة. ومن هذا المنظور، فإنّ دمج الدين، القومية والوحدة الوطنية في خطاب المقاومة يصبح أمراً مثيراً للجدل بشدة من المنظور التعددي. كما أنّ تأكيدات حزب الله بأنّ المقاومة فقط يمكنها إنشاء وحدة وطنية "حقيقية" شاهد على عدم قدرته على التساهل والتسامح تجاه وجهات نظر غيره حول هذه المسألة.

وبالتحول مرة أخرى الى مسألة الجدول التصنيفي، يمكننا الإستنتاج بشكل سليم بأنّ حزب الله يوظف في خطابه المتصل بفلسطين، إطار عمل سياسي– ديني بحيث يأخذ النضال ضد الإحتلال أبعاداً ميتافيزيقية (غيبية). أما العكس فيتكشّف بخصوص خطابه المتصل بلبنان، حيث يقلل حزب الله من أهمية الدين. فالشر المطلق (إسرائيل)قائم ضد الخير المطلق (الأمة الفلسطينية المسلمة). وفي هذا الجدول، ليس هناك مجال لا للتحفظات ولا للإختلافات الضئيلة في المعنى. وبالنتيجة، لا يمكن لحزب الله القبول بأن يختار لبنانيون آخرون مقاربة إسرائيل بطرق أخرى غير المواجهة الكاملة أو أن يختلفوا معه (الحزب) حول أي جانب آخر من جوانب هذه المسألة. وبسبب تشديد الحزب على الصلة بين المقاومة والوحدة الوطنية، فإنّ خلافاً كهذا هو دليل على عدم الإخلاص والولاء تجاه شعب لبنان، في أفضل الأحوال، وعلى الخيانة الصريحة الواضحة في اسوأ الأحوال. أما بالنسبة للمسلمين الآخرين، فإنّ حزب الله سيتساءل، إضافة الى ذلك، عن مصداقيتهم الدينية، بما أنّ المقاومة واجب ديني، وبأنّ حزب الله مفوض من الله لمحاربة إسرائيل.

إنّ نتيجة كل هذا الأمر هو أنّ الوحدة الوطنية التي يلقي حزب الله المواعظ بشأنها هي التي يتم قمع الحوار والنقاش الداخلي فيها لصالح رؤى الحزب الخاصة حول ضرورة المقاومة في فلسطين وأهدافها. ففي إحدى إفتتاحيات صحيفة "الإنتقاد" النموذجية، فإنّ أبطال المقاومة يكرسون أنفسهم لأجل "وطنهم، عروبتهم ودينهم"، في حين أنّ من يعارض المقاومة هم من الـ "معادين للعروبة". فوحدة حزب الله الوطنية تتضمن فقط أولئك الذين يتوافقون معهم حول وجهات نظرهم بشأن فلسطين، ويعمل مفهوم الوحدة هذا على إقصاء جزء هام من الشعب اللبناني. أكثر من ذلك، إنّ مصطلحات الضم والإقصاء ليست موضع نقاش، حيث يعتبر حزب الله بأن قضية فلسطين هي "جزء من ديننا"، بحسب كلمات لنائب الأمين العام نعيم قاسم. وبهذه الطريقة، تدخل الحقائق الدينية المطلقة الى المسرح الوطني بشكل غير مباشر. فحزب الله متحمس لتقديم المقاومة كقضية وطنية، ولا يقدم مفهومه عن الوحدة بمصطلحات دينية. ومع ذلك، فإنه لا يقبل وحدة فيها مجال للإختلاف حول سؤال تورط حزب الله في الإنتفاضة الفلسطينية، بما أنّ الحزب يعتبر فلسطين قضية دينية.

قد لا يكون هناك أية مشاكل متصلة بحقيقة مواصلة حزب الله لخطاب التسامح والتساهل داخل لبنان، في حين أنّ خطابه حول السياسة الخارجية يسوده التعصب والكراهية ضد إسرائيل. فبعد كل شيء، من الممكن فصل هذين المجالين السياسيين نظرياً. لكن كما سبق وأظهرت، فإنّ حزب الله يخلط قضايا الوحدة الوطنية وتكاتف الفئات الطائفية والوطنية مع قضية فلسطين، أما الوسائل المنطقية الرئيسة (المعالجة لشتى المواضيع)لربطها معاً فهو إستخدام كلمة "مقاومة".

ووفقاً لذلك، فإنّ الخطاب غير المهادن حول فلسطين "يستعمر" الخطاب الأكثر تسامحاً حول المسائل اللبنانية الداخلية، بحسب عبارة مناسبة لـ فيركلو. فعند التحدث عن المقاومة، يرفض ممثلو حزب الله إعطاء أية شرعية لخصوم الحزب بما أنّ السؤال المطروح هو سؤال ديني. أما الأمر الأكثر خطورة حتى، فهو أنّ مسألة الوحدة الوطنية بكاملها تبدو معلقة على الموقف الذي تعتمده المجموعات اللبنانية المختلفة نحو قضية المقاومة. فحتى لو تقبل حزب الله سلطة النظام السياسي اللبناني وإحترمه، وبناء عليه لا يحاول فرض رؤاه على أي شخص بالقوة الحسية، فإنّ موقفه بشأن هذه المسألة غير مهادن بالكامل. أكثر من ذلك، لقد ترجم الحزب بتناغم وثبات كلماته بأعمال عسكرية أو غزوات ضد القوات الإسرائيلية، التي إستثارت بدورها تهديدات وردوداً إنتقامية إسرائيلية ليس فقط ضد حزب الله، وإنما ضد الدولة اللبنانية أيضاً. فبمراهنته على البلد بكامله، بسبب حربه مع إسرائيل– لإعتبارات عديدة خاصة– يدمر حزب الله الفرص بحصول التقدم السياسي نفسه الذي دعا إليه بنفسه في برنامجه السياسي.

فهل هذا يعني بأنّ حزب الله هو حزب شمولي بجوهره، وبأنّ أية محاولة يقوم بها للظهور كحزب تعددي تصطدم مع طبيعته الصراعية التوجه؟ أنا أقول بأنّ القضية ليست كذلك. ولشرح وجهة النظر هذه، علينا أن ننظر الى الأسباب الثلاثة الأهم بالنسبة لمقاربة الحزب اللا مهادنة تجاه إسرائيل.

أولى هذه الأسباب، هي الحاجة الى تغذية صورة عن حزب ثوري للبقاء شعبياً ومحبوباً وسط الجماهير. فحزب الله فاز بالقبول في أوساط شرائح جديدة من المجتمع اللبناني بسبب مقاربته التدرجية للسياسات. ولكي يحتفظ بدعم المناصرين والمؤيدين الأساسيين له، عليه، على كل حال، أن يحتفظ بالنار الثورية مشتعلة. وكان باحثون قد علقوا على هذا الجانب من مأزق الحزب المحير . فحزب الله كان بالعادة مميزاً بمعارضته وعداوته لمؤسسات الدولة، معاد للكتائب، ومعارض للحلول السلمية لمشاكل لبنان السياسية. وقد تغير موقفه في كل الميادين: إنه الآن جزء من مؤسسة الدولة، لديه شكوكه إزاء الكتائب، لكن ليس الى حد أن لا يكون بإمكانه التعاون مع ممثلي الكتائب خلال الإنتخابات. كما أنه إختار الحوار والوحدة الوطنية بدلاً من النزاع العنيف لتحقيق ظروف أفضل للشيعة في لبنان.

وعموماً، لقد خفف حزب الله من إستخدامه للهجة الخطاب الإسلامي حصراً لصالح خطاب بالإمكان تقاسمه، بشكل أسرع، مع فاعلين آخرين في المشهد السياسي في لبنان. ولا تزال المقاومة، على كل حال، تقف ثابتة كحقيقة دينية مطلقة بالنسبة للمسلمين، ليخفف ذلك من فقدان حزب الله المحتمل لشعبيته التي قد تقوده إليها تحوله الى السياسات السلمية.

هذا النوع من المآزق كانت قد إختبرته عدد من الأحزاب الراديكالية، سواء أكانت إشتراكية أو دينية، أوروبية أو شرق أوسطية. ولذلك، فإنّ ذلك لا يثبت بأنّ حزب الله عاجز عن حله على حساب إيديولوجيته الإسلامية. أما الأمر الثاني، فهو الوضع السياسي الإقليمي وماهية المجالات التي يفتحها أمام الخطاب والعمل السياسي. ويدعي فيركلو بأنّ الخطاب كله واقع داخل شبكة معينة من الإيديولوجيات والهيكليات الإجتماعية– السياسية. ووفقاً لذلك، يمكن إستخدامه (الخطاب) إما للمحافظة على هذه الهيكليات والإيديولوجيات أو تغييرها.

أما خطاب حزب الله عندما أصدر "الرسالة" في العام 1985، فكان يهدف، وبوضوح، الى تغيير الهيكليات المهيمنة في المجتمع والسياسات اللبنانية. وفي ذلك الحين، كان خطابه مترافقاً مع العمل العسكري، ومعاً (الخطاب والعمل العسكري)، شكلت هذه العناصر إيديولوجية ثورية مبنية على نموذج الخميني للأسلمة. فخلال الثمانينات، تلقى حزب الله دعماً حيوياً ووافراً من إيران. هذا الدعم مكّن المنظمة من محاربة القوات الإسرائيلية (وفئات لبنانية أخرى) بشكل فعال. بالإضافة الى ذلك، كانت خطابات القيادة الإيرانية وحزب الله متماثلة تقريباً. فحزب الله كان رهان الخميني الأفضل في تصدير الثورة، ويعكس الحديث عن دولة إسلامية ومجتمعات دينية أخرى في "الرسالة" هذه الإيديولوجية. أما بالنسبة لسوريا، فقد وجد حافظ الأسد ، بكفاءته السياسية المعتادة، حزب الله مناسباً، بحيث خرجت المنظمة للعمل كذراع ممتدة لسوريا في صراعها مع إسرائيل.

على كل حال، وبعد مجيء حكومة علي أكبر هاشمي رفسنجاني الى السلطة في العام 1989، بردت حمى إيران الثورية، وتم تعديل خطابها الراديكالي. وفي نفس الوقت، تم توقيع إتفاقية الطائف، وأصبح حزب الله بمواجهة خيارات إما أن يصبح جزءاً من النظام السياسي اللبناني تحت السيطرة السورية والإعتراف به كفاعل سياسي شرعي، أو الإستمرار بسياساته اللا مهادنة وعزل باقي الطيف السياسي اللبناني، هذه المرة من دون دعم إيراني ضخم وحسن نوايا سورية. وإختار الحزب التسوية والتعايش، كما يشهد على ذلك سلوكه وخطابه السياسي. وفي تناقض حاد مع خطاب "الرسالة"، يميل حزب الله الآن للمحافظة على وضع سياسي إستفاد منه. فمقترحات حزب الله السياسية بما يتعلق بلبنان، لم تعد تُقدم بلغة ثورية، كما يعترف الحزب بمجموعات أخرى كمجموعات شرعية أو يعترف بهم، حتى، كمعارضين سياسيين ومحاورين قيّمين.

ويجدر الإشارة هنا بأنه كانت هناك فئات أخرى لم تكن مساومة ومهادنة مثله: ميشال عون حارب لأجل لبنان يهيمن عليه الموارنة، الى أن هُزم وفر من البلاد في العام 1991. هذا يُظهر بأنّ حزب الله قادر ومستعد لتعديل سياساته وخطابه بحسب الواقع السياسي الذي يجد نفسه فيه– مُزوداً بالطبع بوجود مجال للحزب بطريقة أو بأخرى في الوضع الجديد.

على كل حال، وبما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، يشجع الوضع السياسي الحالي على موقف حزب الله اللامهادن. ففي حين تم تخفيض الدعم الإيراني بعد العام 1989، فإن هذا الدعم لا يزال هاماً، ويبدو بأنه أصبح أقوى بعد ضم إيران الى ما يُسمى بـ "محور الشر" من قِبَل الرئيس بوش. فدعم إيران محفز بالطبع بالعداوة المتبادلة المتأصلة بينها وبين إسرائيل، ولا يبدو حتى الآن أنّ هذه الكراهية المتبادلة قد خفت. أما سوريا من جانبها، فلا يزال لديها مصلحة بإستخدام حزب الله للضغط على إسرائيل لإسترجاع مرتفعات الجولان التي ضمتها إسرائيل إليها.

أما العامل الثالث، فله صلة بالصراع الإيديولوجي الخطير والحقيقي جداً بين حزب الله وإسرائيل. فخطاب الكراهية لدى حزب الله ليس مسألة حسابات سياسية بالطبع؛ فالحزب ملتزم إيديولوجياً بالقضية الفلسطينية ويعتبر إلتزامه بمثابة واجب ديني. إنّ النزاع الإيديولوجي هو أكثر جدية بكثير من أي جدل دائر داخل لبنان، فالأحزاب لا يعترفون حتى ببعضهم البعض. وكانت إسرائيل قد نددت بحزب الله بصفته "منظمة إرهابية" منذ الثمانينات، كما أنّ حزب الله ينكر حق إسرائيل في الوجود. وكلا الخصمين يشتغلان بجداول تصنيف منطقية (تخدم مواضيع شتى) لا تترك مجالاً للمساومة– إسرائيل بمصطلح "الإرهاب" السحري تقريباً والبنية الإيديولوجية التي نصبتها حول هذا المفهوم، وحزب الله بمقاربته الميتافيزيقية لصراع سياسي، بالأساس، بين الشعبين.

ولوضع الأمر بطريقة مختلفة، يمكن القول بما يتصل بإسرائيل بأنّ الوضع الإقليمي ظل على ما هو عليه، تقريباً، منذ العام 1985 من جانب حزب الله، في حين الصراعات داخل لبنان قد حيدت السمة الدينية وغيّرتها لتصبح سمة سياسية. وفي ضوء هذا التحول نحو الإنفتاح في خطاب حزب الله تجاه السياسات اللبنانية بعد العام 1991، يبدو منطقياً الإستنتاج بأنّ هناك وضعاً إقليمياً محدداً أكبر من "طبيعة" حزب الله كحزب سياسي هو ما يجعل خطابه يتغير أو يستقر.

الإستنتاج

في حين كان خطاب حزب الله في "الرسالة" من العام 1985 مركزاً على الصراع مع مجموعات دينية وسياسية أخرى داخل لبنان (وكذلك قوى خارجية)، فإنه، بعد العام 2000، يبشر وينادي بالتعايش والتسوية والتعاون بين الطوائف.

لقد حدث هذا التغيير بسبب رغبة الحزب بأن يصبح جزءاً مقبولاً في السياسة اللبنانية، ومساوماً سياسياً مقبولاً من قِبَل فئات سياسية لبنانية أخرى وكذلك الإشراف السوري على السياسة اللبنانية. وعلى كل حال، يخلط حزب الله خطابه حول المسألة الفلسطينية مع مسألة الوحدة الوطنية، بحيث أنّ موافقة التعددية الحديثة العهد مشوهة بسبب مفردات التعصب وعدم التسامح. وبما أنّ الخطاب وطريقة الكلام تعتبر مسائل ذات أهمية حيوية في سياسة أي بلد مسالم وديمقراطي، تقريباً، فإن هذا الأمر يعتبر عبئاً خطيراً بالنسبة لحزب يرغب بأن يُنظر إليه كحزب تعددي ومتسامح. وفي نفس الوقت، فإنّ التغيير الذي حدث في خطاب وسياسات حزب الله يتناقض والنظرية القائلة بأنّ الأحزاب الإسلامية عاجزة عن التسامح والتواصل سلمياً مع أخصامها السياسيين.

وبمعنى آخر، إن الصراع الموجود بين الإسرائيليين والفلسطينيين هو الذي، أولاً وقبل كل شيء، يسد الطريق أمام حدوث تطور أكبر في خطاب حزب الله نحو التعددية والتسامح. وفي حين أنّ الحزب قام بجهد حقيقي لكي يصبح جزءاً مندمجاً في السياسة اللبنانية على مدى الـ 10 – 15 سنة الأخيرة، وبأنّ البيئة الوطنية قد سهّلت ذلك، فإنّ المسألة الفلسطينية تمثل، وبوضوح، حدود قدرته على تقبل وجهات نظر أخرى غير رؤاه. وهذا الأمر له علاقة بالقيم الدينية التي يعتبرها الحزب ذات أولوية أعلى من الإندماج الوطني.

ومهما يكن من رأي المرء بشأن هذه الأولوية، فإنّ الحقيقة تظل بأنّ الصراع السياسي بين الإسرائيليين والفلسطينيين لا يزال يشكل خللاً حاسماً في خطاب حزب الله الذي طور، بطريقة أخرى، وجهات نظر متسامحة نسبياً في السياق الإجتماعي والسياسي اللبناني.